مقدمة :

اقام الأشوريون مشاريع إرواء مهمة لأسقاء عواصمهم المتعددة ؛ فقد حفروا قنوات مائية لأسقاء ثلاثة من مدنهم المهمة وهما العاصمتان : نمرود (كالح) ونينوى والعاصمة الدينية اربيل . فقد أوصلوا المياه الى مدينة كلحو (كالح = نمرود) الواقعة في شرقي دجلة) على بعد (35) كم من جنوب الموصل ، وكانت مدينة واسعة بناها الملك الآشوري شلما نصر الأول (1280 ق . م ـ 1260 ق . م) وإتخذها عاصمة له . ولكن ولده تكولتي نينورتا (1260 — 1230 ق . م) بنى له عاصمة جديدة قبالة شرقاط على الضفة الشرقية لدجلة تعرف خرائبها اليوم بتلول العقر ، وقد سماها باسمه (كار تكولتى نينورتا) . وهذه التلول لاتبعد كثيراً عن (تل الاكرح) الواقع في النهاية الغربية لسهل مخمور قرب دجلة ، وأصبحت كالح عاصمة للمرة الثانية في زمن آشور ناصر بال الثالث (حوالى 880 ق . م) ، وبقيت كذلك حتى حكم سرجون الثاني (722 — 705 ق . م) الذي إنتقل الى عاصمته الجديدة (دور شروكين) المعروفة اطلالها اليوم باسم خرسباد . وكانت للمدينة اهمية إقتصادية لوقوعها في بقعة خصبة بين دجلة والزاب الأعلى . فشقوا أقنية للري منها قناة واسعة لاتزال واضحة المعالم تعرف اليوم بالنقوب . والنقوب تقع على الزاب الأعلى والوصول اليها من قرية (كنهش) على بعد كيلو متر ونصف عنها قبالة بلدة الكوير . والنقوب قناة واسعة تأخذ ماءها من الزاب لتسقي مزارع نمرود وتبتدئ بشكل نفق في الجرف الصخري في نقطة يصطدم تيار الماء فيها بقوة وهي في إنحدار الزاب نحو دجلة ، وذلك لوجود إزورار في الزاب هناك . ويبتدئ هذا النفق ببوابة منقورة في الصخر لتنظم دخول الماء الى القناة . وبعد أن يخرج الماء من هذا النفق يجري في قناة مفتوحة نقرت في الصخر عرضها نحو اربعة أمتار تمتد موازية للزاب ، ثم تتجه بعد ذلك نحو سهل نمرود . والمعروف إن الملك آشور ناصر بال هو الذي حفرها ثم كراها ، ووسع فيها الملك أسرحدون . وقد وجد لايارد في الطرف الخارجي من النفق لوحاً من الحجر ذكر فيه إن الملك أسرحدون قد جدد حفر القناة[1] .

والقناة المهمة الثانية هي قناة باغيان القائمة على نهر الكومل ،

وهي تعبر تمام التعبير عن سياسة الأسقاء القديمة على عهد الآشوريين . بجوار قرية خنس (خانوسا القديمة) الى الشمال من (عين سفني) في موقع يعرف بـ باڤيان بقايا أثرية قوامها صور إلهية وملكية منحوتة على وجه جرف صخري يطل على نهر الكومل عند نقطة تبعد نحو كيلو مترين شمال قرية خانوسا ، ونقشت مع هذه الصور كتابات مسمارية تدون أعمال الملك الآشوري سنحاريب . وفي أسفل هذا الجرف أي عند ضفة نهر الكومل بقايا قناة منقورة في الصخر تعطي صورة لنظام ري دقيق التصميم . والقسم الآخر من تلك البقايا الأثرية قنطرة مائية تقع بجوار قرية (جروانة) يبلغ طولها نحو (300) متر مبنية بالحجارة الضخمة وفيها كتابة مسمارية توضح السبب الذي من أجله بنيت القنطرة . ويستدل من قراءة الكتابة المسمارية التي لاتزال على بقايا قنطرة جروانة : إن الملك الآشوري سنحاريب قد أنشأ قناة لتجهيز نينوى بالماء . وبمشروعه هذا تمكن سنحاريب أن يحول البقعة القفراء في شمال عاصمته الى حديقة غناء . وتحقيقاً لهذه الرغبة فقد إنتخب نقطة من نهر الكومل في أعلى قرية خانوسا حيث يضيق النهر ويمر في مضيق جبلي عال ، فصنع مهند سوه نظاماً دقيقاً للري حولوا به قسماً من مياه النهر الى قناة شقها في الجرف الجبلي هناك . ولاتزال آثار هذا النظام البديع الراقي واضحة للعيان . ثم وضع الخطة لشق القناة فأوصلها من مصدرها الى نهر الخوصر الذي ينصب في دجلة بالقرب من نينوى . وأقام القناطر من الحجر حيث إعترض مجرى هذه القناة وادٍ أوجدول ماء لكي يجرى الماء من فوق تلك العوارض . ولاتزال بعض معالم هذا المشروع بينة في عدد من النقاط مثل قرية (شفشرين) و (كندالة) و (مقبل) و (محمودان) و (باقصرة) و (مامرشان) و (جفنة) وأوضحها تلك القنطرة الواقعة قرب قرية جروانة حيث يشاهد هذا البناء الضخم قائماً حتى الان[2] .

سنحاريب و إسقاء أربيل

في ربيع 1934 عثرت مديرية الآثار القديمة العامة على مسناة من قطع مهندمة من الحجارة على جانبي نفق مشيد من الحجارة ذاتها . وتقع هذه المسناة في نهر باستورة (الذي يمتد موازياً لجبال پيرمام ثم يصب في الزاب الأعلى) في نقطة من هذا النهر تقع بالقرب من قرية (قلەمور تكه) التي تبعد حوالي العشرين كيلو متراً عن مدينة أربيل . ولم يتسن في ذلك الحين معرفة الكثير عن هذه المسناة الى أن اكتشفت في ربيع 1946 على الحجارة كتابة لسنحاريب الملك الآشوري يفيد بأنه قد جمع مياه أنهار الجبال في (خانى شادى) ولعلها جبال شقلاوة وپيرمام ، في نهر واحد (وهو ذلك النفق) وأجراه الى أواسط مدينة أربيل موطن الالهة (عشتار) . ومن الجدير بالذكر بأن ممثل الآثار في الموصل السيد أحمد حقي كان قد أوفد الى أربيل لرفع تقرير عن هذا الأثر وسحب تصاوير له . وأن الدكتور (يوردان) مستشار مديرية الأثار القديمة قد تمكن من أن يكتشف إسم سنحاريب من بين الرموز المنقوشة عليه بالحجر . ثم عثرت هيئة أثرية مرسلة من قبل مديرية الأثار ومؤلفة من الأستاذ المرحوم فؤاد سفر والدكتور فرج بصمه چي ، في ربيع 1946 على المسناة الحجر والكتابة المسمارية التي خلفها الملك سنحاريب على نهر باستورة قرب قرية قله مورتكه في أربيل ، وقدمت الهيئة تقريراً وافياً عن الأثر المكتشف .

الى الشمال الشرقي من أربيل على بعد عشرين كيلومتراً منها ، في نقطة من نهر باستورة قريبة من قرية قلةمورتكه الواقعة في الجانب الجنوبي من وادي باستورة ، تقع مسناة من حجر الحلان مهندمة الأطراف ، في وسطها نفق يتجه باتجاه مدينة اربيل متعامدا مع مجرى النهر المذكور . وفي إحدى حجارتها كتابة مسمارية قد غطتها طبقة من الكلس نظفت بعد ذلك وأستنسخت وتبين بعد قراءتها : إن سنحاريب الملك الآشوري الذي حكم الشرق الأدنى منذ سنة 705 حتى سنة 681 ق . م قدبنى هذه المسناة ونقش تلك الكتابة المسمارية تخليداً لمشروعه الهام الذي به جمع المياه المنحدرة من الجبال وأجراها في قناة الى مدينة أربيل . وتتألف المسناة من ستة مداميك من قطع الحجر . ومقياس متوسط حجوم هذه الحجارة 62 × 43 × 80 سم . ومبلغ طولها حوالى 15 متر . وهذه المسناة ليست في إستقامة واحدة فان شطرها الشمالي يفصله عن الشطر الجنوبي النفق ، فهو يبرز قليلاً داخل عقيق باستورة . ويبدو إن الغرض من هذا البروز هو حجز مجرى الماء وإضطراره الى الأنسحاب داخل النفق . والنفق هذا مشيد بالحجارة ولا يعرف مدى إمتداده إذ أن الرمال والحصى قد ملأته بأجمعه ماخلا خمسة أمتار منه إبتداءً من فوهته وسقفه مسطح الا أن عند فوهته يكاد يكون مقوساً وعرضه 1/20 م ويبلغ الجزء الظاهر من إرتفاعه نحو 1/50 م [3] .

مضمون الكتابة المسمارية :

في احدى حجارات المسناة ثمانية أسطر من الكتابة المسمارية ، وهذه الحجرة هي السادسة من اليسار إبتداءً من النفق ، في الصف الثالث إبتداءً من الأسفل . وقد إستنسخت الجهات المختصة في مديرية الآثار القديمة في حينها هذه الكتابة وهذه ترجمتها العربية : (أنا سنحاريب ، ملك العالم ، ملك بلاد آشور ، حفرت ثلاثة أنهار في جبال خانى ، الجبال الواقعة في أعالى (أربائيلو) وأضفت إليها مياه العيون التي في يمين ويسار تلك الأنهر ، وأجريتها في قناة الى وسط (أربائيلو) ، موطن السيدة العظيمة ، الالهة عشتار وجعلت مجراها مستقيماً[4]) ويمكن للمسافر الى صلاح الدين أن يشاهد وادي باستورة الذي يفصل بين مرتفعات خان زاد وجبل صلاح الدين ولعل في إسم خانزاد بقية من الأسم القديم (خانى[5]) .

نهر باستورة والقناة :

يسترفد نهر باستورة مياهه من عيون جبال سفين وبيرمام . وبعد أن يخرج من الجبال ينحدر الى الشمال الغربي لمسافة طويلة حتى يصب في الزاب الأعلى . ويكون ماؤه غزيراً في أيام الأمطار الاّ أنه ينضب في فصل الصيف إبتداءً من بداية شهر تموز حتى حلول فصل الشتاء . ويختلف عمق عقيق هذا النهر عن مستوى الأرض التي يجري فيها ففي مكان المسناة يعلو سطح الأرض نحوأمن (25) متراً عن مقر النهر .

إن الكتابة المسمارية المذكورة تدل على ان سنحاريب جمع مياه الجبال (وسماها خانى ـ شادى) وأجراها في قناة الى مدينة أربيل ؛ ففي أعالى المدينة جبل (سفين وبيرمام وبانى باوهداغ) وهي المقصودة في كتابة سنحاريب وكلها تقع في أعالى سهل أربيل ، وتنبع منها مياه نهر باستورة المعروف . وفي وديان هذه الجبال عدد من النهيرات يجرى الى باستورة حيث تجتمع بالقرب من القرى (سوسه ، زيارت ، قرژه) وبالقرب من المجاز الجبلي المسمى (دربند) ، وهي المنوه عنها في الكتابة . أما العيون المقصودة فهي كثيرة العدد في المنطقة ، وهذه النهيرات والعيون مياهها غزيرة تسقى الأن حقولاً واسعة الى الغرب حتى قرية (دونگزاوه) حيث يغور ماتبقى من المياه ضيفاً في وادى باستورة ، ولايظهر على وجه الأرض ثانية إلا بالقرب من قرية (قلة مورتكه) في الغرب منها . ولما كانت فوهة القناة في مستوى عقيق باستورة على عمق يناهز الـ (20) متراً من سطح الأرض فقد يتبادر الى الذهن أن المشروع شبيه بالكهاريز الشائعة الأستعمال الى الفترة الأخيرة في أربيل وقوامها : سلسلة من الآبار وتصل بينها عند قيعانها أنفاق ، وأنه كانت هناك آبار على إمتداد تلك القناة حفرت لانشاء القناة ، وتنظيفها عند الحاجة ، كما هي الحال اليوم في كهاريز أربيل ، إلا أن مشروع سنحاريب يختلف عن الكهاريز (في جزء مهم منه) بكون مياهه من عيون الجبال بينما ماء الكهاريز ماهو إلا مجموعة مياه الأبار المحفورة . ولكن حين نفحص إتجاه القناة من بدايتها في (قله مورتكه) الى أربيل ، حيث تبدأ المياه عن طريق قناة مفتوحة في الوديان ، نرى في الاماكن المرتفعة إن مجرى القناة يمر بسلسلة من الكهاريز أو الأنفاق المائية التي حفرت لهذا الغرض على هيئة آبار متصلة بعضها ببعض وتبعد إحداها عن الأخرى بمعدل 42 الى 50 متراً على غرار آبار الكهاريز المعروفة في منطقة أربيل . وبذلك فان مشروع سنحاريب كان يتألف من قناة بعضها على هيئة نفق والبعض الأخر بهيئة قناة مفتوحة . ومن المحتمل إن القناة كانت ظاهرة على سطح الأرض في المنخفضات التى إعترضت إمتدادها الى أربيل وعند إقترابها منها ؛ ففي الجنوب الشرقي من قرية بحركة (بين أربيل وقله مورتكه) معالم أقنية لاتتجاوز عرضها الثمانية أمتار قد تكون جزءاً من مشروع سنحاريب . ويبدو من خارطة منطقة أربيل إن منطقة القناة تنحدر تدريجيا نحو الجنوب . وإن قرية قله مورتكه أعلى من مستوى السهل المجاور لأربيل بما لايقل عن (150) قدماً ، وهذا الأنحدار يكفي لأنسياب المياه من القناة الى المدينة . وكانت فوهة القناة مملوءة بالحصى جرفها باستورة في مواسم الأمطار ، وهي مربعة مشيدة جدرانها بالحجارة المهندمة وأرضيتها ببلاط من الحجر ذاته ، وتمتد بهذه السعة نحو ستة أمتار ثم تأخذ بالتوسع التدريجي حتى يصبح عرضها 270 سم . ويدل التبدل في عرض القناة على مهارة المهندس الآشورى لمنع تيار الماء من تخريب القناة . وعلى جانبي القناة ثقبان هما موضعين لقصبين لتثبيت بوابة القناة وتنظيم مائها . وعلى طرفي القناة مسناة تدعم تربة المرتفع الذي من ورائها من الأنهيار ، وتحافظ عليها من التآكل . والمسناة ـ كما قلنا ـ من ستة صفوف من الحجارة الغير مهندمة ، ويبدو إنه كان أمامها رصيف من الحجارة جرفتها مياه باستورة بعيدة عن موضعها الأصلي ، ولم يبق منه الاّ بعض معالمه . ويحتمل إنه كان في وادي باستورة سد واطئ لحبس كمية من الماء لملأ القناة

صيفاً ولم يبق أثر لذلك السد ولكن هناك أحجاراً تناهز الـ(200) حجراً صغيراً في باستورة بعضها على بعد كيلو متر واحد من المسناة وعددها هذا يدل على أنه كان في النهر شيئاً من قبيل السد[6] .

اهمية قناة باستورة :

إن قناة سنحاريب (وهو الملك الذي عنى بأمور الري كعنايته بأمور العمارة والحرب) التى تجمع مياه العيون المنحدرة إلى وادي باستورة ومنه في قناة أو في كهاريز منظمة الى مدينة أربيل لمسافة عشرين كيلومتراً ، تبرز عظمتها إذا ماقارنا طول كهاريز سنحاريب بطول الكهاريز الحالية لأربيل . وتدل أيضاً على اهمية أربيل عند الملوك الآشوريين الدين لم يهملوا أمر المدينة التي كانت ولم تزل في أشد الحاجة الى الماء . والمرجح أن سنحاريب أتم مشروع ري أربيل في عام 691 — 690 ق . م وهو العام الذي فيه أتم مشروعاً آخر للري لارواء العاصمة نينوى بجمع مياه نهر الكومل وينابيع جبل بعشيقة والشيخان في قناة ضخمة طولها زهاء 50 ميلاً عن نينوى . وتقع اليوم على إمتداد قناة سنحاريب في أربيل قرى مشهورة مثل قرية قله مورتكه وقرية (بحركه) التي يوجد فيها عين ماء غزيرة تتجمع مياهها في بركة كبيرة ومن هنا منشأ الأسم (بحركة) الذي هو تصغير بحر باللغة الكردية ، وقرية عينكاوة مركز ناحية أربيل ، وهي قرية واسعة تقع على بعد بضعة كيلومترات من أربيل .

نبذة عن الكهاريز :

قلنا إن جزءاً من مشروع سنحاريب أوقناة باسهتورة عبارة عن كهاريز منظمة لارواء مدينة أربيل . وقد لعبت الكهاريز دوراً مهماً في حياة كثير من سكان والقرى في المنطقة شبه الجبلية من العراق . ومعنى كهريز : الماء الأرضي أو ماء الأرض . وقد وجدت

الكهاريز في العراق منذ القدم وتستعمل للشرب والرى وبعضها لأدارة الطواحين ، وهي منتشرة في المنطقة شبه الجبلية وفي الهضبة الصحراوية وفي السهول المروحية الواقعة في شرقي العراق . والكهريز : قناة تشق بانحدار تدريجي من بئر أعلى الى بئر في مستوى أوطأ ، ومن هذا البئر إلى بئر آخر . وقد يتشعب الكهريز باتجاه المصدر فيتكون من قناتين أو اكثر ليضاعف المساحة التي تتجمع منها المياه . وقد يبلغ طول الكهريز العشرة كيلومترات . ويعتمد طوله على طبيعة سطح الأرض وطبيعة الصخور ، وكذلك على عمق المياه الجوفية للمنطقة التي يراد الأستفادة من مياهها . وتتفاوت كمية مياه الكهريز من موسم لآخر تبعاً لتفاوت كمية الأمطار ودرجة العناية به وتنظيفه ، كما تتفاوت كمية مياهه من منطقة لأخرى تبعاً لكمية الأمطار والمياه السطحية والجوفية وتبعاً لمسامية الصخور وإنحدارها . وتكثر الكهاريز في منطقة أربيل والسليمانية وسنجارو بدرة وجصان ولاعطاء صورة أوضح عن الكهريز وكيفية حفره وتنظيفه نقول : إن الكهريز هو آبار تتصل إحداها بالأخرى . بمجرى تحت الأرض يستوعب عرضه رجلاً واحداً ، والعادة المتبعة هي أن تحفر آبار من سطح الأرض لتتصل بالمجرى أو النفق على مسافات معينة على طول النفق لرفع أتربة المجرى بواسطتها ، ثم تستعمل هذه الآبار كنوافذ هوائية الى النفق كما تستعمل أيضاً للنزول منها الى النفق إذا ماأقتضي نزحه أو تنظيفه من الترسبات والعوائق التى قد تحول دون جريان المياه فيه[7] . وكانت للكهاريز دور كبير في إرواء أربيل وقد كثرت الكهاريز في زمن العباسيين وكانت في منطقة أربيل وحدها (365) كهريزاً بحيث أن المنطقة المحيطة بأربيل كانت مملؤة بالبساتين . وقد ذكر الرحالة الفرنسي تافرينيه (1638 — 1642 م) حيث ذكر (بأنهم إنتهوا الى سهل مربع تكثر فيه الأشجار المثمرة) وما هذا السهل الاّ سهل أربيل . وقد ذكر الميجر هاي الحاكم الاداري في أربيل (1919 — 1920 م) وجود (60) كهريزاً في سهل أربيل لم يبق منها حالياً الاّ عدة كهاريز معرضة للاندثار نتيجة الأهمال في تنظيفها[8] . وقد ذكر بعض العاملين في الكهاريز بأنه لايزال في سهل أربيل حوالى (20) كهريزاً . وقد لعبت الكهاريز دوراً خطيراً في بقاء أربيل مأهولة بالسكان على تقادم العصور ، إذ لم يستطع الغزاة تدميرها كما دمروا قنوات الري في بابل وسائر مدن جنوب العراق[9] .

مستنسخ الكتابة المسمارية في قناة باستورة

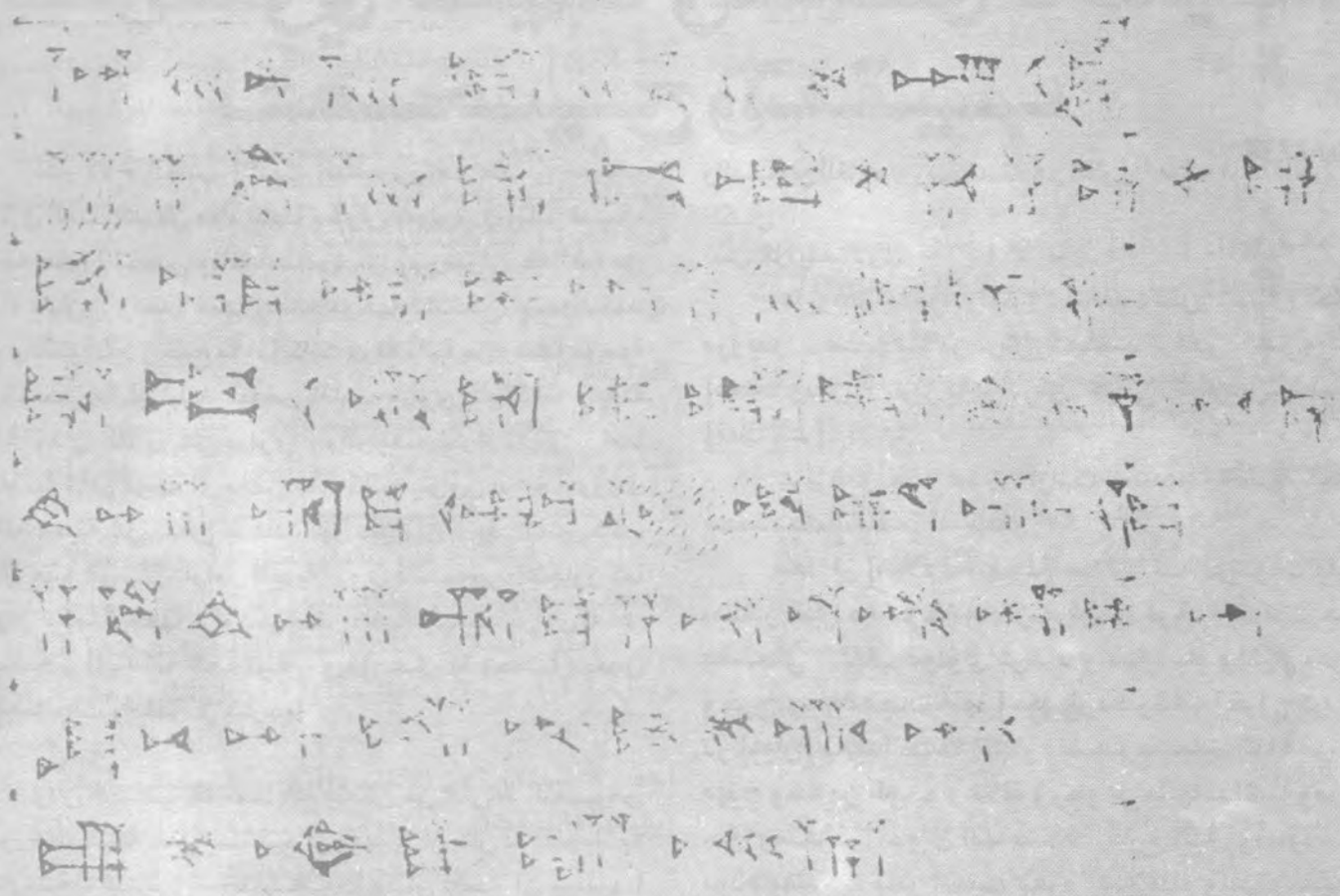

المصادر والهوامش

1 — مجلة سومر م 5 ج 2 1949 ص 319 ـ 320

2 — مجلة سومر م 2 ج 2 1946 ص 276 — 278

3 — المصدر السابق ص 279 — 282 . قدر الخبراء في المرة الثانية إرتفاع النفق بـ 120 سم وعرضه بـ112 سم .

4 — طه باقر : جولات تاريخية بين مواطن الآثار في شمالي العراق . مجلة المجمع الكردي (3 — 1) 1975 ص 638 — 640 .

5 — طه باقر وفؤاد سفر : المرشد الى مواطن الآثار . الرحلة الخامسة بغداد 1966 ص 6 — 7 .

6 — مجلة سومر م 3 (1947) تقرير الأستاذ فؤاد سفر ص 279 وما بعدها .

7 — خالد عبدالمنعم العاني : موسوعة العراق الحديث بغداد 1977 ص 52 — 53 وص 97

8 — هاى : سنتان في كردستان : ترجمة فؤاد جميل بغداد 1973 ص 37 — 39

9 — عبدالرزاق الحسني : العراق قديماً وحديثاً . صيدا 1956 ص 238 — 239 ولمزيد من التفاصيل عن الكهاريز راجع مقالنا الموسوم (الكهاريز في اربيل) : مجلة الحكم الذاتي العدد الثالث لسنة 1982 ص 16 — 19

الترجمة الانكليزية للنص الآشوري

The Text , The reading , andtranslation are as Follows : —

1 — Sennacherib king of the world , King of Assyria (says) .

2 — "Three rivers which from The mountains khani — shade .

3 — That from above Arbil — The waters Of Kunipi .

4 — Those to the right and left ot the sides of the rivers shatidu .

5 — I dug . and I gathered , it together .

6 — I dug a canal to the midst of the city Arbil .

7 — The dwelling place of the goddess Ishtar , The great (?) Lady

8 — And Icaused its courses to be straight .